أثر العمارة فى إبراز المشخصات القومية

للدكتور أحمد فكرى

أمين دار الآثار العربية

لكل أمة من الأمم طبيعة تميزها فى هـذا العالم ، وقد أرادت الطبيعة ألا يتشابه بلدان فى تكوينهما ، فالسواحل والأنهار والأودية والجبال تتباين وتكسب كل بلد مظهرا لا نظير له وتخلق منه جسدا فريدا من نوعه .

والعمارة رداء هذا الجسد . وكأن الانسان لم يقنع بما ميزت به الطبيعة بلاده فأراد أن يميزها بردائها المعمارى ، إلا أن الطبيعة أولا هى التى أوحت اليه بذلك بما قدمته له من مواد العمارة . فالجرانيت فى مصر أكسب عمارتها مظهرا غير مظهر الرخام فى بلاد الإغريق ، والآجر فى بلاد ايران .

واقترنت الطبيعة بالعقائد فى تكوين هذا الرداء المعمارى ، فالمبانى فى بلاد الاغريق تتصل بأنظمة معابدها ، وفى البلاد المسيحية تقتبس من الكنائس عناصرها ، وفى البلاد الاسلامية تأخذ عن المساجد عقودها وزخارفها وهى فى هذه تختلف اختلافا جوهريا عنها فى أولئك .

وإلى الطبيعة والعقائد اجتمع التفكير والخيال ، واجتمعت أسباب الحياة الاجتماعية والسياسية ففرضت على الانسان فى موطنه أشكال عمارته وأوحت اليه معانيها .

وهكذا ، فآثار العمارة فى برتغال مثلا تتشح بمظهر يميزها عن آثار العمارة فى جارتها أسبانيا ، وهى فى هولندا تقوم على غير المبانى التى تقوم عليها فى جارتها بلجيكا . وكان لها فى بلاد الرومان أنظمة غير التى كانت لها فى بلاد الاغريق ، ولن تجد فى التاريخ أمة كانت تعتز بشخصيتها فلم تترك فى عمارتها اثرا بارزا لهذا الاعتزاز .

وهكذا تختلف عمارة الشعوب مظهرا وعناصر وأنظمة بقدر اختلاف هـذه الشعوب طبيعة وتفكيرا وعقيدة وخيالا ، وبقدر اختلاف حياتها السياسية والاجتماعية .

فاذا كانت عناصر الأمة ومشخصاتها الطبيعية والتاريخية تتحد جميعا فى العمل على تكوين عمارتها وتتفق على أن تجعل من هذه العمارة رداء مميزا لها فإن هذه العمارة بدورها تحتل من هذه المشخصات مركز الدعامة والزعامة .

فالتاريخ يحدثنا عن نهضة الشعوب، فنرى العمارة أثرا خالدا ومرآة ناطقة بهذه النهضة. وهى من بين الوثائق التاريخية أكثرها سهولة وإيضاحا . ألا تتجلى عظمة قدماء المصريين أولا فى عمارتهم ؟ أليست أهراماتهم أفخم عنوان لمجدهم الغابر ؟ أليست معابدهم الفسيحة الهائلة أزهى صورة لعصورهم الفاخرة ؟ أما نيل مصر وصحراؤها وزرعها وعلومها وآدابها وأما ملوك مصر وحروبهم وفتوحاتهم فكل هذا لا شك عظيم خالد فى التاريخ يتحدث الناس عنه فى كل زمان ومكان، ولكن هل بلغ كل هذا من إعجاب العالم ما بلغته عمارة قدماء المصريين؟ وهل كان كل هذا ليبقى خالدا لو أن آثار العمارة اندثرت من مصر أو لم يتخذ منها صرحا ودعامة يقوم عليهما ؟

ولكل أمة لغتها تشخص قوميتها . ويذكر العالم للإغريق لغتهم وما أخرجته من آداب وعلوم وفلسفة مما يدين العالم به لهم منذ أكثر من ألفى عام . ولكن آثار عمارتهم نفسها لغة عالمية يتفهمها الناس جميعا، لغة هى بلا شك أوضح بيانا وأكثر بلاغة من اللغة الاغريقية نفسها .

ولكل أمة من المشخصات القومية غير لغتها عقائدها وأزياءها وعاداتها وطباعها وفنونها ونظمها السياسية وطرق تفكيرها . وإذا تجول الانسان فى عاصمة من العواصم شعر بآثار كل هذه المشخصات ماثلة أمامه . ولكن لمبانى هذه العاصمة وعمارتها وقعا أكبر على النفس وأبقى للذكرى .

فأين نحن من كل هذا ؟ لبلادنا فى التاريخ مرحلتان عظيمتان، ومدنيتان من أسمى المدنيات تركتا من آثار العمارة أشدها تعبيرا لمبلغ سموهما وأقواها تشخيصا لقوميتنا المزدوجة . وسواء أراد البعض منا أن يتصل حديثنا بالمرحلة الأولى ، وأن تمتد قوميتنا الى تاريخنا القديم أو أن تنقطع هذه الصلة بالفتح الإسلامى فلا تقوم قوميتنا إلا على أساس ما اجتمع لها منذ بدء هذه المرحلة الثانية من عناصر اللغة والعقيدة والتفكير والتشريع وأسباب الحياة الاجتماعية والسياسية سواء أكانت الغلبة لهذا الرأى أو لذلك فأين مظاهره القومية الحديثة ؟ أين قاهرة اليوم من قاهرة الفاطميين ؟ أين دور حكومتنا وقصورنا من دور الحكم حينئذ والخلافة ؟ الواقع أن الواحد منا يشعر حين يتجول فى عواصم بلادنا بانعدام قوميتنا أو باتصالها بغير العناصر التى

كونتها ، أين مايذكرنا فى فناء الجامعة بما كان لأجدادنا فى العلوم والآداب والفنون ، وفى قيام المدنيات القديمة والحديثة ؟ وأين مايذكرنا أمام دور محاكمنا بأسس التشريع والفقه التى تحدّد علاقات بعضنا ببعض ؟ وهل حرصنا على أن تكون أنظمة مساكننا وواجهاتها صدى للطبيعة التى تحيط بنا وللعقائد التى نتشبع بها والحياة الاجتماعية التى تيسرت لنا ؟ أين دورنا من دور الفسطاط والقاهرة بأفنيتها وحدائقها وفساقيها ، وبما تجمع فيها من وسائل الراحة والصحة ، وبما اتشحت به من مظاهر الفن والجمال ؟

مظاهر عمارتنا اليوم خليط من مظاهر عمارة الأغريق والرومان والدول الحديثة اختفت قوميتنا وراء جدرانها وكأن آثارنا أصبحت غريبة فى بلادنا . فلا سبيل إلى إحياء مشخصاتنا القومية وتعزيزها إلا بالعودة فى ما نقيمه من المبانى إلى الطابع القومى ، فتكون عمارتنا كما هى فى جميع الشعوب الكريمة أثرا بارزا للاعتزاز بالقومية .

أحمد فكرى